المصدر : نيوزويك
التاريخ : ٢٤ يوليو ٢٠٠١

# جسم من الدلائل

## قد يملك المدعون قضية محكمة ضد ميلوسوفيتش في قضية التغطية على سوفا ريكا. خاص لنيوزويك. بقلم روي غوتمان وورد نورد لاند

بدأت عملية التغطية في عتمة الليل بعد وقت قصير من بدء حملة قصف كوسوفا في مارس عام 1999. فقد اندفع مدير صربي من قسم صحة البيئة في قرية بريزرين، جنوب كوسوفا، إلى بيوت أربعة من الموظفين وأيقظهم من النوم. وحشر موظفو النظافة الأربعة، وجميعهم من الغجر، في عربة نقل بيضاء، وأخذوا إلى حقل رماية الجيش اليوغسلافي الواقع على مشارف البلدة. وعندما خرجوا من العربة إلى المطر البارد وشاهدوا ضباط الشرطة والجيش وهم يتحركون حول الموقع، تساءل الأربعة فيما إذا كانوا سيصبحون الضحايا التالين للهيجان الصربي.

متحد: ميلوسوفيتش في محكمة لاهاي تتحرى في جرائم الحرب في كوسوفو

كان الضوء الوحيد في حقل الرماية يأتي من كومة من العجلات المحترقة التي كانت تبعث رائحة كريهة، ودخانا داكنا. إلا أنه كان بإمكان العمال الغجريين مشاهدة ظلال جرافة تعمل على مسافة منهم. عندئذ اتضحت لهم نوايا السلطات الصربية، حين قلصوا المسافة بينهم وبين الحفارة. وكذلك سبب استدعاء فريق صحة عامة. كان الصرب ينبشون مقبرة جماعية. واقتربت شاحنة تبريد بيضاء، ثم صدرت الأوامر لعمال الصحة العامة بتحميلها. "بسرعة، بسرعة" صاح مسؤولهم الصربي الملقب باسم "بودا". وكانت مهمة أشبه ما تكون بالكابوس: ففي الضوء الخافت قطعت الحفارة الأجساد. وجرفت بعضهم من دون ايد أو أرجل قاطعة آخرين من النصف.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وتواصلت حملة ضخمة لإزالة آثار الجرائم الصربية في كوسوفا على مدى شهرين، أي حتى نهاية الحرب في 20 يونيو. وتنقلت الشاحنات المبردة مرات عدة بين كوسوفا وجمهورية الصرب ناقلة الجثث من أماكن المجازر، لأن الصرب كانوا يخافون من أن يكتشف جنود الناتو هذه الجثث. ونبشت الكثير من القبور الجماعية. وقد ألقيت شاحنة واحدة على الأقل، تحوي 86 جثة في نهر الدانوب شمال شرقي بلغراد. ويشير تقرير أجرته نيوزويك حول التغطية، يركز بشكل رئيسي على العمل غير المتقن للتخلص من جثث ضحايا مجزرة وقعت في قرية سوفا ريكا في كوسوفا، إلى أن عملية التغطية أدارتها قيادات صربية على أعلى المستويات من بلغراد. وفي الحقيقة اتضح أن سلوبودان ميلوسوفيتش نفسه هو الذي أصدر الأوامر لبدء حملة التغطية في 26 مارس، وهو يوم مذبحة سوفا ريكا.

ما أهمية الدلائل في عملية التغطية هذه، علما أن الفظائع نفسها معروفة جيدا؟ قليل من الأشخاص في دول الناتو الأمريكية والأوروبية لديهم شك، على أي حال، في أن ميلوسوفيتش مدان بإدارة جرائم الحرب في البلقان. إلا أن الدعوى القانونية الماثلة أمام محكمة الجزاء الدولية ضد يوغوسلافيا السابقة في لاهاي أقل إحكاما مما يعتقد البعض. فهي محاكمة، كمثيلتها في نوريمبرغ قبل ما يزيد على نصف قرن، ستبقى أصداؤها لعدة عقود مقبلة. فهي أول محاكمة لرئيس دولة سابق كمجرم حرب. ويمكن أن تشكل أسبقيات مهمة في القانون الدولي؛ أو ربما كنوريمبرغ إلى حد ما، فقد يحكم عليها بأنها مريبة قانونيا باعتبارها تطبيقا لعدالة المنتصرين. ومن المؤكد أن هذا ما كان يفكر به ميلوسوفيتش حين ظهر للمرة الأولى أمام المحكمة وصرح بإنجليزية ركيكة قائلا: "إنني اعتبر هذه المحكمة محكمة مزيفة".

ويقع عبء إضافي على كاهل القضاة والمدعين لإدارة محاكمة لا تؤدي فقط إلى إقرار العدل، إنما تفهم أيضا على أنها محاكمة عادلة. ونتيجة لذلك فإن الكثير يتوقف عند إثبات مشاركة ميلوسوفيتش في بعض المجازر الموثقة كمذبحة سوفا ريكا، كما يقول المدعون العامون. وهم يعترفون، في مقابلاتهم، بأنهم لم يستطيعوا حتى الآن ربط ميلوسوفيتش بجرائم الحرب المبكرة في البوسنة وكرواتيا التي نفذتها غالبا ميليشيات موالية. وأما في حال مقاطعة كوسوفا الصربية فقد كانت هناك سلسلة قيادية رسمية بين ميلوسوفيتش والأشخاص الذين ارتكبوا عمليات الترحيل والذبح. ويواجه ميلوسوفيتش الآن ثلاثة اتهامات بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، واتهاما بخرق قوانين الحرب أو أعرافها. وأما مسألة التسلسل القيادي فهي كافية في حد ذاتها للإدانة. (وحتى لو لم يأمر ميلوسوفيتش مباشرة بارتكاب المجازر، فإن من الممكن المجادلة حول أنه كان عليه أن يعرف بوجود حملة التطهير العرقي ويقوم بإيقافها). لكن محامي الدفاع الجيدين يستطيعون إلقاء ظلال الشك على أفضل القضايا شكلا. وعليه فإن من المهم تأسيس أكثر من العلاقة غير المباشرة للحصول على محاكمة مقنعة. ولهذا فإن أي إثباتات جديدة تتعلق بمسألة التغطية على المجازر تعتبر حيوية: فتفاصيل حملة إخفاء الجثث تتضمن - على الأقل ضمن الملكية العامة - أول الدلائل الظاهرة على تورط ميلوسوفيتش مباشرة في الجرائم المرتكبة تحت قيادته.

فالغجر الأربعة الذين كانوا ينقلون الجثث في تلك الليلة الباردة من أواخر مارس هم جزء من حملة منظمة، وإن كانت سيئة التنفيذ، لتصفية الدلائل على مجزرة مروعة حدثت في قرية سوفا ريكا وما حولها في جنوب كوسوفا. وجاءت روايات القتل من الناجين مباشرة (ونشرتها نيوزويك للمرة الأولى في يونيو عام 1999). وفي واحد من أكثر الحوادث بشاعة، قتل الصرب 49 فردا من عائلة ممتدة واحدة. وفي لغة القضاء والاتهام الجافة، الخالية من الدماء، فإن قصة مجزرة عائلة بيريشا تروى كما يلي:

"أمرت الشرطة السكان بالخروج من منازلهم. ثم فصل الرجال عن النساء والأطفال، وقتل ستة من أفراد العائلة. أما من تبقى من أفراد العائلة فقد ساقتهم القوات الصربية إلى مقهى. وسيق هؤلاء مع ثلاث مجموعات أخرى من عائلة بيريشا الممتدة إلى داخل المقهى. ثم مشى المسلحون الصرب إلى داخل المقهى وأطلقوا النار على الأشخاص في داخله، كما رموا المتفجرات داخل المكان. وقد قتل 34 مدنيا على الأقل وأصيب آخرون بجراح بالغة".

في تلك الليلة، وضع الصرب الجثث في شاحنة توجهت نحو مكب نفايات بلدة بريزرين، كما يقول

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

المشاركون. واستطاع ثلاثة من الناجين، الذين تظاهروا بالموت، تحرير أنفسهم من بين الجثث ومغادرة الشاحنة. وعندما أدرك السائق أن أحياء قد فروا، اتصل برؤسائه بالراديو طالبا تعليمات جديدة. وتم تحويل الشاحنة إلى حقل رماية الجيش حيث ألقيت الجثث في مجموعة من الحفر.

واجتمع ميلوسوفيتش في اليوم نفسه في بلغراد مع قيادات الشرطة والجيش القلقين. ووفقا لمصدر يوغسلافي مطلع على ما دار في الاجتماع، حذر نائب وزير الداخلية، لفتننت جنرال فلاستيميد ديوريفيتش بأن القوات اليوغسلافية قد تضطر إلى تسليم كوسوفا قريبا، ونبه إلى أن قوات الناتو قد تجد جثثا في الكثير من الأماكن؛ بما في ذلك جثث لضحايا تتراوح أعمارهم بين يومين وعامين يمكن استخدامها كإثباتات على وقوع جرائم حرب. (من بين ضحايا سوفا ريكا حامل في شهرها الثامن وستة من الأطفال تحت سن الخامسة). وقال ميلوسوفيتش للمجموعة: "اهتموا بالأمر"، حسب دوسان ميهايلوفيتش، وزير الداخلية الصربي الإصلاحي الذي عرف بالموضوع بواسطة مشاركين في الاجتماع. وقد أكد دبلوماسي أوروبي كبير في بلغراد هذه الرواية حين أخبر نيوزويك أن أوامر إخفاء الدلائل "جاءت من أعلى القمة". وهو يقول أيضا إن هناك شريطا مسجلا عن الاجتماع سلم إلى محكمة لاهاي. (ومن المؤكد استدعاء مشاركين للشهادة حول القرار: اللفتننت جنرال المتقاعد راده ماركوفيتش، الذي كان حينذاك مسؤولا عن أمن الدولة، واللفتننت جنرال المتقاعد غيزا فاركاس، رئيس أمن الجيش في ذلك الوقت. أما ديورييفيتش نفسه فقد هرب إلى روسيا. وهناك مشارك آخر متهم من قبل المحكمة في لاهاي بسبب الحرب في كوسوفا).

ولحسن حظ المحققين فإن الصرب كانوا سيئين في عمليات التنظيف كما كانوا أثناء عمليات القتل. فقد تأخر الليل قبل أن ينتهي الغجر الأربعة من عملهم في حقل رماية كروني بوبيت، حيث وضعوا في الشاحنة ما بين 60 و80 جثة. وحسب روايتهم، فقد صدرت لهم الأوامر بعد ذلك بالتوجه نحو مكب نفايات بلدة بريزرين، وهناك وضعوا بقايا جثث ما بين 20 و30 جثة إضافية - يفترض أنها لضحايا من منطقة سوفا ريكا - داخل شاحنة مبردة ثانية. وكان عليهم بعد ذلك التخلص من الجثث، وألا ترى مرة أخرى. لكن في أوائل أبريل شاهد صياد على نهر الدانوب إحدى الشاحنتين - وعليها علامات شركة "بروغرس" لمعالجة الأغذية في بريزرين - طافية على سطح النهر. وأظهرت تحقيقات لاحقة أن السائق كان قد أحضر الشاحنة إلى ضفة النهر، ووضع حجرا على دواسة البنزين، ودفع الشاحنة إلى النهر. ولكن لم يفكر أحد بإحداث ثقوب في الشاحنة أو عجلاتها، وهكذا طفت على سطح الماء. وقد سحبت الشرطة المحلية في بلدة كلادوفو الشاحنة من الماء ظانة أنها ستجد شحنة من اللحوم. وحين كسر رجال الشرطة أحد أبواب الشاحنة، سقطت ساق آدمية نحوهم.

وأدركت الشرطة سريعا أن الجثث المتحللة تعود لألبانيين من كوسوفا، واتصلوا برؤسائهم في بلغراد للحصول على تعليمات. وقد تولى جهاز أمن ميلوسوفيتش الأمر مرة أخرى. وحسب ما يقوله دراغان كارلوسا، المحقق الرئيسي في وزارة الداخلية الصربية، فإن نائب وزير الداخلية ديورييفيتش أصدر أوامره للشرطة المحلية للتعامل مع الأمر باعتباره سرا من أسرار الدولة. وأخيرا، واستنادا إلى أوامر ديورييفيتش، نقلت الـ 86 جثة إلى باتاينيكا، شمال بلغراد، وهي قاعدة من قواعد الجيش اليوغسلافي ووحدات شرطة ميلوسوفيتش النخبوية المتخصصة "بمكافحة الإرهاب"، كما قال كيرلوسا لنيوزويك. وقد وضعت الجثث بعد ذلك على أعمدة خشبية، ووضعت عليها عجلات سيارات، وأغرقت بالبنزين، ثم أحرقت. أما الشاحنة فقد فجرت في قاعدة للشرطة الخاصة في بتروفو سيلو في شرق الصرب.

ويعاد فتح القبور الجماعية الممتلئة بالجثث من مذابح مختلفة حدثت في كوسوفا، كتلك الواقعة في باتاينيكا، في أربعة مواقع على الأقل في جمهورية الصرب. ويظهر أن حمولة شاحنة قد أفرغت في حفرة خلفتها قنابل الناتو على طريق بلغراد - أثينا الرئيسي ثم أعيد ردمها. وقد استعمل القياديون الإصلاحيون في بلغراد الإثباتات الجديدة من المقابر الجماعية للمساعدة على تحضير الجمهور لقبول قرارها بتسليم ميلوسوفيتش لمحكمة الجزاء في لاهاي. إلا أن نسبة التعاطف مع ميلوسوفيتش ارتفعت مرة أخرى إلى 50 بالمائة بعد عملية تسليمه المتسرعة وظهوره الأول متحديا [المحكمة].

وهذا لا يتوافق جيدا مع المحاكمة نفسها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

فاتهام ميلوسوفيتش، حسب تفكير محكمة جرائم الحرب، قد يمكن الألبانيين والصرب العاديين من مواجهة ما حدث والعيش مرة أخرى مع بعضهم بعضا. لكن الكثير من الصرب مازالوا على تحديهم، كما أن الكوسوفيين الألبان ما زالوا غير راضين. "لا يهمني ميلوسوفيتش" يقول هالد بيريشا، الذي كان أخوه غيشار بين ضحايا سوفا ريكا. "أحدهم قام بعملية القتل، ويجب أن تتم محاكمته. إنها ليست غلطة ميلوسوفيتش؛ إنها غلطة الصرب جميعهم".

ويعرف الكثير من الشهود القتلة الحقيقيين في سوفا ريكا. وقد جمع المسؤولون في لاهاي شهادات مكتوبة من شهود يتهمون ميلورад (ميسكو) نيزافيتش وزوران بيتكوفيتش وبوبان فوكسانوفيتش وسلوبودن كرتيتش بأنهم الشخصيات الرئيسية والقتلة الحقيقيون. ويدير نيزافيتش في الوقت الحاضر مدرسة لتعليم القيادة في كراغولييفاتش في جنوب الصرب. ويعيش بيتكوفيتش في بانسيفو، إحدى ضواحي بلغراد. ولا يعرف مكان كرتيتش، أما فوكسانوفيتش فقد قتله جيش تحرير كوسوفا في كمين انتقامي بعد أسابيع فقط من المجازر.

وإلى الآن تنفجر الدموع في عيني إحدى الناجيات، فيولكا بيريشا، بمجرد ذكر المذبحة. وقد استطاعت فيولكا ، ومعها ابنها غراموس، ثماني سنوات، من مغادرة الشاحنة التي كانت تنقل الضحايا إلى المقبرة الجماعية في حقل الرماية. وهي تتساءل "لماذا لم أمت؟ لماذا أكون أنا من بقي على قيد الحياة؟". ويعتقد أن طفليها دفينة ودريلون، اللذين كانت أعمارهما 15 و13 عاما وقت المجزرة، هم من بين الضحايا. لم تشاهدهما فيولكا يموتون فعلا، وما زالت تشعر بالذنب لأنها قفزت من الشاحنة مع غراموس فقط. وهي تعرف أن دريلون كان على متن الشاحنة وأنه كان مصابا، لكنها لا تعرف ما إذا كان ميتا حين غادرت الشاحنة. ووجدت جثة زوجها، سادات، في مكان ليس بعيدا عن بيتها.

ولا تتوقع فيولكا من المحاكمة أن تغير شيئا، فتقول: "بالنسبة إلي، ليس مهما أن يتهم ميلوسوفيتش لقد دمرت حياتي سواء عوقب هو أو الأشخاص الذين ارتكبوا هذه [المجازر]. إن ذلك ليس مهما. ليس هنالك شيء يستطيع إعادة أبنائي لي". ومع ذلك فإنها عازمة على تقديم الشهادة في محكمة لاهاي، وقد قدمت شهادة مكتوبة للمحققين. وعاد محققو لاهاي، الأسبوع الماضي، مرة أخرى إلى سوفا ريكا لأخذ المزيد من الشهادات. ومن المحتمل أن تشكل فيولكا جزءا رئيسيا من القضية التي سيرفعها المدعون ضد ميلوسوفيتش حول مجزرة بيريشا؛ وضد القتلة الحقيقيين إذا واجهوا العدالة. والمسألة بالنسبة إليها هي، كما هي بالنسبة إلى ميلوسوفيتش، فيما إذا كان الحكم في لاهاي سيكون أكثر من مجرد عدالة المنتصر.

بمشاركة كريستوفر ديكي في لاهاي
وجيفري بارثولت في نيويورك

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية